**الفكر الاقتصادي الماركسي**

على أساس الانتقادات التي وجهت للفكر الكلاسيكي خاصة تلك المتعلقة بحقوق العمال، والذين جعلهم هذا المذهب يزدادون فقرا نتيجة استغلالهم من طرف البرجوازيين الذين تمكنوا في ظله من زيادة ثروتهم وزادت بذلك الهوة بين الفئتين، ولهذه الأسباب قام تيار فكري قوي لنقد النظام الرأسمالي، واشترك جميع المعارضين في رفض فكرة الانسجام التلقائي بين فكرة المصالح الخاصة والمصلحة العامة[[1]](#footnote-2)، وهذا التيار سمي بالمذهب الماركسي[[2]](#footnote-3).

**أولا:مرتكزات الفكر الماركسي**

قبل التطرق إلى الأفكار التي جاءت بها المدرسة الماركسية في المجال الاقتصادي،لابد من معرفة مرتكزات المذهب الماركسي، وهي:

**1-المادية الجدلية:**

سميت المادية الجدلية بهذا الاسم لأن أسلوبها في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية ومنهجها في البحث والمعرفة جدليان،كما أن تفسيرها ومفهومها لهذه الظواهر ماديان، أي تأخذ في الاعتبار علاقات التأثير و التأثر والاعتماد المتبادل بينها،والتركيز على الوجود المادي الملموس لهذه الظواهر طبيعية كانت أو اجتماعية،كما أنها توجد في حركة مستمرة وفي تطور لا يتوقف فكل شيء في تغير مستمر لا شيء نهائي[[3]](#footnote-4).

كما يعبر عن المادية الجدلية بمبدأ صراع المتناقضات، فهي تنتج عن تصارع الأضداد بين المتناقضات الداخلية، فالشيء هو في الوقت نفسه ونقيضه والتناقض الأساسي في المجتمع الرأسمالي بين رأس المال والعمل، ففي المجتمع الرأسمالي تنشأ الحركة الاجتماعية من تصارع الأضداد، من خلال الصراع بين الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية، وتكون الطبقة العاملة هي المحرك للتغيير والتطور[[4]](#footnote-5)ولذلك فإن التطور يتم عن طريق مراحل ثلاث: الإثبات، والنفي ونفي النفي، فكل شيء وكل فكرة تتضمن نقيضها، ويؤدي ذلك إلى ظهور حالة جديدة هي ما نسميها بنفي النفي أو التركيب. [[5]](#footnote-6)

لذلك تتلخص الجدلية كما وردت في كتابات ماركس و أنجلز في النقاط الآتية[[6]](#footnote-7):

-ضرورة دراسة الظواهر في ترابطها وعلاقتها بغيرها، وبدون ذلك فإن الدراسة تصبح فارغة وغير مجدية.

-ضرورة دراسة الظواهر في تطورها،فالطبيعة ليست ساكنة ومستقرة ولكنها في تطور مستمر.

-يؤدي التطور في الكم إلى تغيير الكيف عند مرحلة معينة .

-سبب هذا التطور هو صراع المتناقضات.

**2-المادية التاريخية:**

يرى "**ماركس**"أن الإنتاج المادي هو أساس تطور المجتمع، وأن العمل هو أساس الحياة والوجود، كما أن الدراسة التاريخية للمجتمع،كشفت عن تنوع أشكال الإنتاج من خلال المجتمع البدائي،مجتمع الإقطاع،المجتمع الرأسمالي،والمجتمع الاشتراكي، فالمادية التاريخية تظهر لنا حسب ماركس أن المجتمع الإنساني الذي بدأ بالنظام الشيوعي لا بد وأن ينتهي حتما بالنظام الشيوعي، فالعامل الاقتصادي والاجتماعي هو الذي يحرك التاريخ، وهذا ما يعرف بالتفسير المادي للتاريخ، فالتاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنساني وهي قوانين حتمية،تفرض نفسها كما أنها مرتبطة بالعمل والإنتاج، وطريقة توزيع الثروة هي نتاج العمل، وتبعا لمقولة البناء الفوقي والبناء التحتي في المجتمع يعتبر العامل الاقتصادي هو المحور الرئيسي في التطور التاريخي.[[7]](#footnote-8)

إن ماركس ينظر إلى **العامل الاقتصادي** على أنه أساس التطور،حيث يقول **:"إن الإدراك المادي للتاريخ يستخلص من الظواهر الاجتماعية وتطورها لا من المشيئة الإلهية والفكر المطلق، ولا من إرادة الفكر بل من الظروف الواقعية لنشاط الناس العملي، ومن الإنتاج المادي الذي يشكل مراحل تطوره والتشكيلات الاجتماعية المحددة تاريخيا".[[8]](#footnote-9)**

وبالتالي فإن الأحوال الاقتصادية لأي جماعة إنسانية هي التي تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها، وبالرغم من أنه لا ينفي دور **الأفكار والعواطف** إلاأنها نابعة من الأوضاع الاقتصادية وأثرها المباشر على العقل.

**ثانيا-الاقتصاد الماركسي**

تعتبر الأفكار الاقتصادية **لكارل ماركس** بمثابة نقد للنظام الرأسمالي،حيث تصور انهياره وصعود النظام الاشتراكي دون ذكر الآليات التي يعمل بها هذا النظام،ومن أهم النظريات التي جاءت بها المدرسة الماركسية في المجال الاقتصادي، نذكر ما يلي:

1**-نظرية القيمة:**

يأخذ ماركس **بنظرية العمل في القيمة** فيفرق بين **القيمة الاستعمالية للسلعة** ويقصد بها منفعة السلعة لإشباع حاجات الإنسان، وهي شخصية لأنها لا تتوقف على الأفراد، وهناك ثانيا **القيمة التبادلية للسلع** ويقصد بها قدرة السلعة على المبادلة بسلعة أخرى.

ويرى ماركس أن القيم التبادلية لسلعة ما مع السلعة الأخرى لا بد أن تعبر عن أشياء مشتركة متساوية لها، ومثال ذلك:إذا كانت كميتان مختلفتان من سلعة القمح وسلعة الحديد متساويتين في القيمة،فلا بد أنهما يحتويا على كمية متساوية من شيء ثالث يكون مشتركا بينهما ويسمح بالمقارنة بينهما، ولذلك فإنه لا يمكن التعبير عن قيم هذه السلع إلا بمعرفة هذا الشيء الثالث[[9]](#footnote-10).

ويتساءل ماركس عن هذا **الشيء المشترك** الذي يجعل الذي يجعل السلع تتبادل مع بعضها البعض؟ فيؤكد أنه باستبعاد قيمة **الاستعمال** لتفسير قيمة المبادلة لن يتبقى سوى عنصر واحد مشترك في جميع السلع هو كونها ناتج **العمل الإنساني،** ولذلك فالسلع ذات قيمة لأنها ناتج العمل الإنساني،وهو الطابع الاجتماعي والمشترك بين جميع السلع وبالتالي فالعمل هو الذي يفسر قيمة المبادلة وهو أساس القيمة.

أما الصعوبة التي واجهت ماركس، أنه يمكن التمييز بين أنواع مختلفة من العمل، فيوجد عمل سريع ومتطور وفيه وسائل متطورة للإنتاج وهناك عمل بطيء بوسائل بدائية غير متطورة، فهل تعني نظرية العمل في القيمة أن ما تنتجه ساعة واحدة من العمل من الأول يساوي ويوازي ما تنتجه ساعة عمل من النوع الثاني بالرغم من زيادة كمية الإنتاج أو تحسن نوعه في هذا النوع الأخير؟ أجاب ماركس على ذلك بأن العبرة هي بكمية العمل اللازم "**اجتماعيا**"،وبعبارة أخرى أن يكون العمل تحت الظروف الغالبة في المجتمع.[[10]](#footnote-11)

**2-نظرية فائض القيمة:**

يرى ماركس أن التبادل يختلف في ظل الإنتاج الرأسمالي عنه في ظل نظام الإنتاج البسيط ففي ظل الإنتاج البسيط لا يدخل فيه الرأسمالي،يبيع المنتج سلعته مقابل النقود،ثم يستخدم هذه النقود للحصول على ما يلزمه من السلع الأخرى، وبعبارة أخرى فإن التبادل يأخذ هذه الصورة:

**سلعة أ -------نقود----------- سلعة ب**

ويحقق المنتج فائدة إذا كانت منفعة **السلعة ب** بالنسبة له أكبر من منفعة **السلعة أ** التي يبيعها.

أما في ظل الإنتاج الرأسمالي، فالمنتج الحقيقي هو العامل لا ينتج لحسابه وإنما لحساب الرأسمالي، ولذلك يأخذ التبادل صورة مختلفة تبدأ بشراء الرأسمالي عنصر العمل والمواد الأولية التي يستخدمها في الإنتاج،ثم يبيعها في السوق مقابل النقود، وعلى هذا فالدورة تبدأ بالنقود التي يستخدمها الرأسمالي في شراء العمل والمواد الأولية وتنتهي بالنقود التي يحصل عليها مقابل بيع السلع المنتجة،[[11]](#footnote-12) وتصبح صورة التبادل:

**نقود--------------سلع-------------نقود**

ويحقق الرأسمالي فائدة إذا كانت النقود التي يحصل عليها أكبر من تلك التي يبدأ بها، و يتسأل ماركس عن مصدر هذه الزيادة في النقود التي يحصل عليها الرأسمالي،ويرى أنها ناجمة عن فائض القيمة،ويرى ماركس أن سبب هذه النتيجة هي قدرة العامل على أن ينتج ما هو أكثر قيمة مما استهلكه.

فالرأسمالي لا يشتري من العامل عددا من ساعات العمل ولكنه يشتري "**قوته**" على العمل، ومن ثم تظهر في السوق كسلعة من السلع،يشتريها الرأسمالي، بمعنى أن قيمة "**قوة العمل**" تتحدد بعدد ساعات العمل اللازمة لإنتاجها، وهي الساعات اللازمة لإنتاج السلع الضرورية لحياة العامل، ولذلك فإن الرأسمالي يدفع مقابل "**قوة العمل**" ثمنا هو الآجر، وهو يساوي ثمن السلع الضرورية لحياة العامل.

وباعتبار أن العمل يتميز بقدرة العامل على إنتاج سلع ذات قيمة أكبر من قيمة السلع التي استهلكها، فإن الرأسمالي يستطيع أن يشغل العامل عددا من الساعات أكبر من عدد الساعات اللازمة لإنتاج السلع الضرورية،ومن هنا يحصل الرأسمالي على الفرق وهو ما يسمى "**بفائض القيمة**"، مثال ذلك أن يستهلك العامل سلعا تقدر ب 5 ساعات من العمل مع أنه يعمل مدة 10 ساعات فهنا الفرق، هو ما يطلق عليه فائض القيمة ترجع للرأسمالي كأرباح.[[12]](#footnote-13)

ولكي يؤكد **كارل ماركس** أن العمل وحده من يخلق القيمة الفائضة فإنه قسم رأس المال إلى قسمين:

**أ-رأس مال ثابت:** يشمل وسائل الإنتاج من مواد خام ومعدات وأدوات العمل وهذا الجزء من رأس المال ليس له أي علاقة في خلق فائض القيمة.

**ب-رأس المال المتغير:** ويعني الجزء من رأس المال المحول إلى قوة العمل،أي الأجور ويعتبر كارل ماركس أن هذا القسم من رأس المال هو الذي يخلق فائض القيمة[[13]](#footnote-14).

**3-الأزمات الاقتصادية:**

لدى ماركس عدة تفسيرات للازمات الاقتصادية، حيث يعتقد أن السبب في الأزمات الاقتصادية هو الإفراط في الإنتاج أو نقص الاستهلاك، فمع زيادة الإنتاج الرأسمالي، نتيجة لزيادة تراكم رأس المال مع بقاء الأجور منخفضة تقوم صعوبة في تصريف هذه المنتجات،وبذلك يعرف النظام نقص الاستهلاك المرتبط بحصول الرأسمالي على فائض القيمة، ومن ثم حرمان العمال من الحصول على دخول كافية يمكن أن تترجم في شكل طلب المنتجات في السوق، وهكذا يؤدي الاستغلال الرأسمالي إلى ظهور الأزمات وظهور حالات الإفراط في الإنتاج لا مشترين[[14]](#footnote-15).

ومن ناحية أخرى أخذ ماركس الاتجاه الغالب لدى مفكري الكلاسيك،بالقول باتجاه النظام الرأسمالي نحو الركود نظرا لانخفاض معدل الربح فيه، فإذا انخفض هذا المعدل عن المعدل الذي يعتبره المنظمون تعويضا ومقابلا مناسبا،فإن الاستثمارات ستقل،وبذلك فإن ما يحصل عليه الرأسماليون من فائض القيمة لايتم تداوله ولا يظهر في شكل استثمارات جديدة، وهذا ما يؤدي إلى انخفاض الإنتاج.

وأخيرا يشير ماركس أن الفوضى في النظام الرأسمالي وعدم معرفة حاجات السوق على وجه الدقة، يمكن أن يؤدي إلى تقلبات شديدة، وقد يترتب عليها إفراط في إنتاج بعض السلع.[[15]](#footnote-16)

**ثالثا: تقييم الفكر الاقتصادي الماركسي**

مما لاشك فيه أن ماركس سيظل أبرز المفكرين الموسوعيين في تاريخ البشرية وسيبقى إنتاجه الفكري في مختلف جوانب المعرفة،موضوعا للجدل والمناقشة، كما أن أفكاره كادت أن تؤدي إلى حرب عالمية ضد الأفكار الرأسمالية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك فقد ظلت الماركسية لعقود من الزمن الدافعة إلى ظهور تنظيمات ونقابات عمالية حتى في الأنظمة الرأسمالية، كأنها تطالب بقوتها وقد حققت بعض التنازلات.

كما تحققت بعض تنبؤات الماركسيين بخصوص مستقبل النظام الرأسمالي وانهياره، من خلال الأزمات التي عرفها،فمثلا الأزمة الاقتصادية التي عرفها العالم سنة 1929، ساهمت في ظهور الأفكار الكنزية التي دعت إلى تدخل الدولة في الاقتصاد في بعض القطاعات[[16]](#footnote-17).

غير أن الماركسية وكغيرها من المدارس الاقتصادية تعرضت لنقد العديد من المفكرين من خلال الجوانب الآتية:

-الأهمية التي أولها ماركس للطبقة والصراعات الطبقية في تفسير التغيرات التاريخية الأساسية في المجتمع البشري،جعلته يهمل علاقات اجتماعية أخرى على جانب كبير من الأهمية،خاصة القومية والصراع بين الأمم.

-لم يعمق بناء المجتمعات الحديثة الهوة بين البرجوازية والبروليتاريا ولم تختلف منه الشرائح الوسطى من السكان،كما أن الطبقة البروليتارية لم تحقق نموا في الوعي الاجتماعي،بحيث تقوم بدورها التاريخي في الثورة على ما تصور ماركس[[17]](#footnote-18).

-اعتبرت الماركسية أن الاشتراكية هي المرحلة الأخيرة لتطور المجتمعات والتي تصل إليها البشرية بعد الثورة على النظام الرأسمالي الصناعي، إلا أن بعض الدول تبنت النظام الاشتراكي دون المرور على المرحلة الرأسمالية الصناعية، فقد توطنت فيها الاشتراكية بعد مرحلة الإقطاع مباشرة مثل الصين الشعبية.[[18]](#footnote-19)

-ارتبطت النظرية الماركسية بالشمولية وإلغاء دور الفرد وغياب الديمقراطية، وسيطرة بعض الفئات ويتم ربط ذلك كله بما حدث من انهيار للاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية، مع أن هذا الانهيار للنظم وليس للفكر الذي سوف يظل باقيا للإنسانية مثل فكر أفلاطون، وأرسطو،... وابن خلدون وغيرهم**.[[19]](#footnote-20)**

-التركيز في تفسير نظرية القيمة على عنصر العمل وإهمال عناصر الإنتاج الأخرى، فضلا عن غياب فكرة تحديد الأجر بحد الكفاف لاسيما مع التطور التكنولوجي الذي تعرفه المجتمعات والتي زادت من إنتاجية العمل، رافقها زيادة الأجور للعمال وتحسن مستوى معيشتهم[[20]](#footnote-21).

1. -موسى سلامة، الاشتراكية، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ص 17. [↑](#footnote-ref-2)
2. تعود المدرسة الماركسية إلى الفيلسوف الألماني "**كارل ماركس**" (1883-1818)، الذي أسس مبادئها وارسي قواعدها مع زميله "**فريدريك أنجلز**"، وتعرف بالاشتراكية العلمية في مقابل الاشتراكية الخيالية التي نظر لها "**سان سيمون**" في فرنسا، والرأسمالية الصناعية التي عرفت تطورا كبيرا وعلى نطاق واسع في أوروبا. [↑](#footnote-ref-3)
3. عزت عبد الحميد البرعي، المرجع السابق، ص 531. [↑](#footnote-ref-4)
4. نفس المرجع، ص 532. [↑](#footnote-ref-5)
5. حازم البيلاوي، المرجع السابق، ص90. [↑](#footnote-ref-6)
6. نفس المرجع، ص 91. [↑](#footnote-ref-7)
7. سعاد عطاء فرج، تاريخ تطور الفكر الاجتماعي، القاهرة: مطبوعات جامعة عين شمس، 2008، ص55. [↑](#footnote-ref-8)
8. جورج غوريفتش، دراسات في الطبقات الاجتماعية، ت: أحمد رضا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص 54. [↑](#footnote-ref-9)
9. حازم البيلاوي، المرجع السابق، ص 96. [↑](#footnote-ref-10)
10. نفس المرجع، ص 97. [↑](#footnote-ref-11)
11. حازم البيلاوي، المرجع السابق، ص 97. [↑](#footnote-ref-12)
12. كامل محمد، محمود عويصة، كارل ماركس: الماركسية والإسلام، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، 1996، ص 120، 121. [↑](#footnote-ref-13)
13. فاتح شيباني، المرجع السابق، ص 80. [↑](#footnote-ref-14)
14. حازم البيلاوي، المرجع السابق، ص 102. [↑](#footnote-ref-15)
15. نفس المرجع، ص 103. [↑](#footnote-ref-16)
16. فاتح شيباني، المرجع السابق، ص 80. [↑](#footnote-ref-17)
17. مصطفى خلف عبد الجواد، نظرية علم الاجتماع المعاصر، ط1، عمان:دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2009، ص66. [↑](#footnote-ref-18)
18. رفيقة حاروش، المرجع السابق، ص 148، 149. [↑](#footnote-ref-19)
19. عزت عبد الحميد البرعي، المرجع السابق، ص 557. [↑](#footnote-ref-20)
20. فاتح شيباني، المرجع السابق، ص 81. [↑](#footnote-ref-21)